

من رمزه الحجاز

حديث الحج في المدينة المنورة للدكتور عبد الوهاب عزام

—

التي صلى الله عليه وسلم لحجة الوداع . ثم سرنا فلاحنا لنا بعد قليل المدينة المنورة تتوجها القبة الخضراء ، كأنما تباهى على صفرها السماء ... أهذه نضرة الإيمان في هذه البقعة ، أم ازدهار الآمال في هذه الساحة ؟ أم كما قال عاكف بك : واحة نزلت من السماء لتأوي إليها الأرواح المتحرقة في البقاء ؟

ودخلنا المدينة من الباب الشامي حيث محطة سكة الحديد الحجازية . وحططنا رحلتنا في المدرسة السعودية وقد أعدت لنزلنا . ثم سارعنا تتأهب للموقف الجليل ، للساعة التي تعرج فيها الروح من الأرض إلى السماء . ذلكم المسجد النبوي في بهجة النور والإيمان ، يدوي بالصلين والداعين والقارئین ؛ ولكن الرواق إزاء الحجرة النبوية لا يرى من هذا الجمع أحداً ولا يحس من هذا الدوي همساً . لا يرى إلا هذا الجلال ولا يسمع إلا هذا الرحي . وإنما هي وقفة يتمحى فيها الزمان والمكان فيتصل الأزل بالأبد والسماء بالأرض

يا لك بقعة صغيرة لا يدرك العقل مداها ، ولا يبلغ الفكر منهاها ! يا لك حجرة يظل الفكر مسافراً في أرجائها ، علقاً في أجوائها ، فيتطوَّف في أرجاء التاريخ ، ويحلّق في أقطار السماء والأرض ؛ وكأنما طوى الزمان ، وزويت الأرض ، واجتمعت الإنسانية ، وحشر البرّ والحق وكل خلق طيب في هذا الفريخ . يا لك بقعة كالشوكب المضيء تناله الأعين في لغة وتحيط أشعته بالعوالم العظيمة ! يا لك بقعة ككنبع النهر العظيم ، متدفق بالحياة فياض بالبركة مدّاد بالخير يحيي الأجيال بعد الأجيال

يا حيرة الوصف ، وعجمة البيان ! أي عنوان كتاب انطوى على الحق والصدق ، والخير والبر ، والإحسان والرحمة ، يقرؤه القارئ جملة ثم لا يزال تروعه منه الصفحة بعد الصفحة ؟ أم هي تاريخ لا يزال الدهر يكتب صفحاته وإنما أوله وحى الله وآخره غيب الله ؟

أرى هؤلاء المصلين لا يفكرون ، وهؤلاء المرتلين القرآن لا يصمتون ، وهؤلاء الداعين لا ينقطعون ، أسمع هذا الآذان وهذا السلام وما يحدث به السلم أخاه ، وما يفضي به في علانيته ونجواه ؟ ليس فيما ترى إلا أناسي هدام محمد ، بأفعال علمها محمد ،

فصلنا من جُدَّة مغرب الثلاثاء خامس عشر ذي الحجة ، متوجهين تلقاء المدينة ، وهي مسافة تقطعها قوافل الإبل في ١٤ يوماً . وبعد مسير سبع ساعات في طريق سهلة على مقربة من البحر بلغنا رابعا . وهي قرية ذات نخل على مسير ساعة من البحر للرجال ، تجتمع فيها طرق بين جدة ومكة والمدينة ، وإذا حاذها الحجاج القادمون من الشمال في البحر الأحمر أحرموا للحج ، وليست هي ميقات للأحرام ولكن الميقات الجحفة على عشرة أميال إلى الجنوب منها

واستأنفنا المسير حتى الخميس آملين أن نبلغ طيبة عشية اليوم ولكن الرمال عوقت بعض السيارات فتنا في أبيار بن حصان . ثم غدونا مسافرين ونزلنا بالمسيجد بعد ثلاث ساعات . واستأنفنا السير حتى العصر فلاح لنا النخل أخضر يائسا يبشر باقتراب الغاية ؛ ونزلنا آبار على وهي ذو الحليفة ميقات أهل الدينه . ومنه أحرم

آمنت بالله والحب !

لقد أفتدتني مرجريت من العذاب الأليم

وفرت سبعمائة فرنك قبل رحيلي إلى العراق ، وفرُّها وأنا لثيم بخيل

وفرت سبعمائة فرنك لأحرم نفسي وقلبي من أبوة موريث
وفرت سبعمائة فرنك لأرجع إنساناً سخيلاً لا يعرف الهيام
بأودية الماني

مرجريت ! مرجريت !

أذكركني بالشعر يوم أموت

هل الله عاف عن ذنوب تسلفت أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

نكي مبارك

« مصر الجديدة »

ولا ينظر الإنسان نظرة في هذا المسجد المبارك إلا وقمت على ذكرى كريمة من رسول الله وأصحابه . فهناك سارية عائشة ، وسارية أبي لبابة الصحابي التي ربط نفسه بها ، وآلى ألا يرح حتى يتوب الله عليه ، وخوخة أبي بكر .

وحول المسجد مواقع الدور التاريخية : دار أبي بكر ، ودار عثمان وغيرها

وفي المدينة مشاهد كثيرة عظيمة لا يتسع المقام لتعدادها . وحسبي أن أذكر ما شهدت في يوم واحد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة: خرجنا إلى جبل أحد وهو شمال المدينة قريب منها فررنا بجبل سلع وشرنا حتى شهدنا مكان موقعة أحد ورأينا قبر حمزة أسد الله رابضاً في الرءاء وعلى مقربة منه جدار يحيط بمدفن شهداء أحد رضى الله عنهم .

وفي اليوم نفسه توجهنا شطر الجنوب إلى مسجد قباء وهو أول مسجد أسس في الاسلام بناء الرسول صلى الله عليه وسلم حينما هاجر من مكة فزل في قباء على مقربة من المدينة في بني عمرو ابن عوف . وهو المسجد الذي ذكر في القرآن : « لمسجد أُنس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا . والله يحب المتطهرين » والمسجد كما يرى اليوم حسن النظر على الجدران تتجلى فيه البساطة والنظافة وقد توالى عليه التعمير حتى انتهى إلى بناءه الحاضر . وفي صحن المسجد مكان يقال إنه مبرك ناقة الرسول صلوات الله عليه ، وقد قرأت عليه يبتين باللغة التركية

وعلى مقربة من المسجد بئر أريس . وهي بئر عميقة ماؤها عذب غزير صاف وهي التي سقط فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان أيام خلافته . ويستخرج الماء منها ومن آبار المدينة كلها بالسواني . ترى بكرات على البئر معلقة بها غروب كبيرة وتجرح جبالها الدواب من الإبل أو البقر أو الحمير . وقد تجتمع الثلاثة معاً ، تسير الدابة نحو البئر فيتبدل الغرب ^(١) حتى يمتلئ ، ثم ترجع البئر حتى يرتفع الغرب . فإذا علا الحوض جذبته الجبال فينصب ماؤه في الحوض ، فيسير الدابة أو السانية في طريق مستقيمة ذهاباً وجيئة

(١) الغروب جمع غرب وهو آله

وكلت أملاها محمد ، بل كل سوت يرتفع إلى الله في أقطار الإسلام ، وكل عبارة في وضوح اسماؤ أو جنح الظلام ، وكل لسان يدعو إلى الخير وكل يد تمتد بآبى وكل كلمة حق ودعوة صدق ، وكل نية محمودة وسعى مشكور ، فمنها منبه ، ومن هذه البقعة وحية ؛ بل كل نزة في المسلمين إلى سؤدد ، وكل طموح إلى علاء ، وكل سلطان فيهم قائم بالحق ، وكل سرع نافذ بالعدل ، وكل دعوة إلى حرية وثورة على ظلم ، وانتصار للحق ، وتمرد على الباطل — كل أولئك شعاع من هذا الدور ، أو قطرة من هذا ينبوع

ولست تمثل هنا مجداً ولا سلطاناً ولا سؤدداً ولا علواً إلا تمثلته تواضعاً للحق ، وبراً بالخلق ، ورأيت سؤدد المساكين وسلطان المستضعفين . السلطان الذي يجمع الناس على شريعة من العدل والرحمة والمودة والسلام

موقف يتضائل في جلاله كل جلال ، ويصفو في جماله كل جمال . لمحات تطهر فيها النفس من أرجاسها ، وتبرأ من أهوائها ، وتسمو على شهواتها ، وتخلص من أغلالها ، تستمد الخير والحق والعلاء والتقوى والحب والسلام وتوسع السماء والأرض وكأنما تخلق خلقاً جديداً وتفتح في أعمالها صفحات جديدة . خسر من لم يطهره هذا الموقف ، وخاب من لم ترفع فيه هذه الساعة . هنا النفس المطهرة . هنا محمد بن عبد الله . هنا رسول الله . هنا خاتم النبيين . ثم هنا اثنان من صحبه وخلقائه : أبو بكر وعمر

المسجد النبوي في شكله الحاضر بناء السلطان عبد المجيد الثاني ، استقرت عمارته ١٢ سنة بين سنة ١٢٦٥ وسنة ١٢٧٧ ولم تُبق من الأبنية القديمة إلا قليلاً ؛ وهو جميل المنظر حسن الهندسة في سقفه قباب صغيرة منيرة مزينة تحملها عمد متقاربة صبغت لوناً أحمر وزينت بالتذهيب

كان المسجد حين بناء الرسول سبعين ذراعاً في ستين وجدرانه من اللبن وسقفه من الجريد وعمده جذوع النخل ، ثم وسعها الرسول فجعله مائة ذراع في مثلها ثم توالى التوسيع والتعمير في أيام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم حتى انتهى إلى شكله الحاضر . ولكن حدود المسجد القديمة معلمة بالعمد كما حددت الروضة النبوية بين القبر والمنبر .

كلها أهلها ودورها ومساجدها وطرقها وساحتها، كل أولئك يدعو المسلمين إلى التعاون على الخير والاجتماع على العمل الصالح الذي يحمل طيبة بلدًا معمورًا آهلاً، منسق الدور والطرق، ميسر الطعام والشراب، موفر وسائل الصحة والعمل الصالح الذي يجعلها مباءة علم يؤمها بعض الطلاب من أرجاء أقطار الإسلامية لتؤلف بينهم الثقافة الإسلامية المشتركة، أو تحفزهم إلى خير الإسلام والمسلمين الآراء المتداولة، ويدرسوا تاريخ الإسلام في مواقعهم. وليت المدينة تصبح مقصد المسلمين من أقطار الأرض يقرون إليها في الحين بعد الحين ليجدوا سلام أنفسهم وطمانينة قلوبهم وصحة أبدانهم، فيذهب إليها أغنيائهم وأسرانهم كلما ملكوا الفرصة للاستراحة قليلاً من ضوضاء الحياة ومفاسدها لن يرى المسلمون دينهم ورسولهم وأنفسهم حتى تنخو أيديهم بالآل وتجتمع عقولهم وأعمالهم على الإصلاح. والله يهيئ لهم من أمرهم رشداً ويهديهم للتي هي أقوم

عبد الوهاب بن همام

قلبي لنفسي ...

حضر الأسمى يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبالتة فرس مطهم . فقال الوزير لصاحب كتاب الحيل : قم يا أسمى وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمه ، فإذا سميتها أخذته . فقام وأمسك بنصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه فأعطاه إياه . فبهى يا نفس أن الجود والرق لم يرفعا من الأرض ، وأنى دخلت يوماً على أمير من الأمراء الهاليل وبين يديه جارية من الغيد الحسان ، ترفل في دمسق شيكوريل وسمعان ، وقال لي هذا الأمير الأديب : إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس ، ووصفت ما في هذه الدار من الأثاث ، نزلت لك عن الجارية والدار ، وزدتك عليهما ألف دينار ! فإذا تربنتي يا نفس فاعلماً ، وأنا الذي لا تعزب عنه مادة في اللغة ، ولا قاعدة في النحو ، ولا نكتة في البلاغة ؟ ماذا أسمي هذا المائل على القود الأيسر ، أو هذا المائل على الجبين الأزهر ؟ وماذا أقول في هذا المزور على الصدر الشرق ، وهذا المذكر تحت الثدي الناقى ، وهذا المرسل على الكشح المضيق ، وهذا المفصل على القدم اللطيفة ؟ أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار ، ولا من لباس الجسم غير الملاءة والإزار ، ولا من وقاء الرجل غير الخذاء والنعل ! فهل تنطبق هذه الأسماء ، على هذه الأشياء . أم تكون دلالتها عليها كدلالة الأثاث والرياش على كل (موبليات) البيت ، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة ، والجهل والمُجْمة على كل أدوات السيارة !!

لا جرم أني سأعجز على أي حال ، وسأطلب من رفعت باشا الجارية والدار والمال !

أبه هجر الملك

والمدينة جيدة الهواء في الصيف معتدلة في الشتاء ، وأرضها خصبة وآبارها غزيرة وبساتينها كثيرة ، وفيها النخل والكرم والرمات والبرتقال والخوخ والوز والبليخ وفواكه أخرى . وعمرها جيد جداً وأصنافه لا تعد

ولكن الأرض في وقتنا هذا ليست مستغلة كل الاستغلال ، ولا تنقى بحاجات أهلها ، ويعيش كثير منهم على التجارة ، ويعول فقراؤهم على جدوى المسلمين

ويظهر على دور المدينة وساحتها الفقر . وفي ذمة المسلمين أن يبروا جيران رسول الله وأن يعمرُوا دار رسول الله . عليهم أن ينفقوا الخيرات ، ويمدوا أيديهم للأعمال الداعة النظفة من بناء المستشفيات والملاجئ والمصانع والمدارس . وظنى أنه إذا استثمرت أموال المسلمين في أرض المدينة وغلاتها ، زادت خيراتها أضاعافاً مضاعفة ووفت بحاجات سكانها أو كادت .

إن الحرم المدني والمدينة